

اجتهادات غلقُ أفكار مفتوحة

رغم أن الليبرالية ليست أيديولوجيا لأنها نسقُ مفتوحُ تعددت منابغُه وتنوعت الأفكارُ فيه، وتعارضت أيضًا، فقد أضفت نُخبُ وأحزابُ سياسيةُ في دولٍ غربيةٍ عليها طابعًا أيديولوجيًا، عندما انطلقت منها في إدارة الصراع ضد الكتلة السوفيتية في مرحلة الحرب الباردة الدولية. وبلغت ممارساتُ نُخبٍ سياسيةٍ أمريكيةٍ أعلى مبلغ في هذا الاتجاه، إذ انتهجت سياساتٍ عدوانيةً جمعت بين مكونين عسكري وأيديولوجي، حين شنت حروبًا، ودبرت انقلاباتٍ في بعض المناطق خاصةً أمريكا اللاتينية تحت شعار الدفاع عن الحرية ومواجهة الشيوعية.

أقنع الرئيس جون كيندي ومن بعده ليندون جونسون، وهما الرئيسان الأكثر ليبرالية منذ الحرب العالمية الثانية، بأن استخدام القوة ضروري للحرية في فيتنام. ولكن النتيجة كانت هزيمة القوة التي استُخدمت لتحقيق هدفٍ أيديولوجي، وإساءةً إلى الليبرالية لم يقدر أشدُ خصومها في أن يأتوا بمثلها.

لم يكن هذا كله حدث عندما بدأ الحديث عن نهاية الأيديولوجيا في منتصف الخمسينيات. ومع ذلك، ظل كُثر يرددون هذه العبارة، بل توسع انتشارها بعد تفكك الاتحاد السوفيتي السابق وكتلته، انطلاقًا من افتراض أن الماركسية هي آخر الأيديولوجيات الكبرى. وهذا

افتراض لم يُثبت، بل ثبت عكسه لأن الميل إلى إنتاج أنساقٍ فكريةٍ مغلقةٍ لا ينتهى، فضلاً عن غلق أنساقٍ مفتوحةٍ كما فعل بعض من تبناوا الليبرالية، ورغم تمكن مفكرين ومتقنين يساريين كبارٍ من فتح النسق الفكرى الماركسى الذى أغلقه من حكموا باسمه فى الاتحاد السوفيتى السابق، وأساءوا إليه مثلما فعلت نُخبٌ أمريكيةٌ بالليبرالية.

ولم يكن مشروعُ تغيير الشرق الأوسط، الذى تبناه المحافظون الجدد، إلا تجلياً ثانياً لأدلجة نسق فكرى بقى مفتوحاً لأكثر من ثلاثة قرون. وكما فى فيتنام، استُخدمت القوة العسكرية فى أفغانستان والعراق فى الاتجاه نفسه، ولكن تحت شعار الحرب على الإرهاب.

والحال أن المؤسسات الأمريكية مازالت تفتقرُ إلى ليبراليين حقيقيين يُدركون أن انتشار الحرية يتوقفُ على ازدياد الوعى فى العالم بقيمتها، وتقديم نموذجٍ حضارىٍ إنسانىٍ يساعدُ فى انتشار هذا الوعى، ويفهمون أن هذا يبدأ بالإقرار بأن غلق النسق الفكرى الليبرالى فى بلادهم كان خطأ، بل خطيئة.